Didactique du Français

Semestre: 2

مادة اللغة العربية
تحليل الخطاب الروائي
(التطبيق)

الأستاذ رضوان بوخالدي

الجزء الرابع

البنية التركيبية والدلالية
في
رواية «شيفرة بلال»

للروائي:

أحمد خيري العمري

3-2- علاقات التواتر:

يعتبر ج-جنيت التواتر السردي مظهرا من المظاهر الأساسية للزمنية السردية، رغم أنه لم يحظ بأهمية حقيقية لدى المنظرين للرواية بشكل عام.

وينشأ التواتر عن «قدرة الأحداث المسرودة (من القصة) والمنطوقات السردية (من الخطاب) على التكرار، والذي يؤدي إلى نسق من العلاقات نستطيع تقديرها ابتداء في أربعة أنماط افتراضية، وذلك بمجرد مضاعفة الإمكانين من الجهتين: حدث مكرر أو لا، منطوق سردي مكرر أو لا. وبشكل أكثر تخطيطا، يمكننا القول: يمكن لأي خطاب روائي أن يحكي مرة واحدة ما حدث مرة واحدة، و(n) مرة ما حدث (n) مرة، و(n) مرة ما حدث مرة واحدة، ومرة واحدة ما حدث (n) مرة».

Entre ces capacités de « répétition » des événements narrés (de l'histoire) et des énoncés narratifs (du récit) s'établit un système de relations que l'on peut a priori ramener à quatre types virtuels, par simple produit des deux possibilités offertes de part et d'autre : événement répété ou non, énoncé répété ou non. Très schématiquement, on peut dire qu'un récit, quel qu'il soit, peut raconter une fois ce qui s'est passé une fois, **n** fois ce qui s'est passé **n** fois, **n** fois ce qui s'est passé une fois, une fois ce qui s'est passé **n** fois. (G.Genette: Figures III, p: 175)

1 ← 1 **حكاية مرة واحدة ما حدث مرة واحدة**: وهو ما يميزه ج-جنيت بتسمية خاصة، وهي الحكي الإفرادي (Singulatif)، وذلك باعتباره الحالة الشائعة والعادية حيث الذكر المفرد للحدث المفرد.

تنطبق هذه الحالة على مجمل أحداث ومو اقف الرو اية، لأن كل ما لا ينطبق عليه الحكي الترددي، فإنه يندرج ضمن الحكي الإفرادي، فهو الأصل والحالة المرجعية التي تقاس عليها الحالات الثلاثة المتبقية.

n ← n **حكاية (n) مرة ما حدث (n) مرة**: أو الحكي الترددي (itératif)، وهو حالة اصطلاحية أكثر منها طبيعية أو عادية، لأنه لا وجود لحدث يتكرر كما هو، ذلك أن النوم والاستيقاظ والذهاب والإياب...، وكل ما يتكررحدوثه في حياة الناس، لا يعاد وفق نفس الشروط والظروف، إذ هناك دائما اختلاف ما –صغرأم كبر- يضفي على كل مرة طابع الجدة والحدوث. وبالتالي فإن هذا النمط يبدو ظاهريا على أنه ترددي، بينما هو في الحقيقة إفرادي، خصوصا إذا تساوى عدد الحدوث في القصة مع عدد الورود في الخطاب.

لا يحدث هذا التساوي بدقة إلا في الخطاب السردي الذي يتتبع تحركات الشخصية في أدق تفاصيل تصرفاتها، ولذلك فإنه نادر في «شيفرة بلال»، لأنها رو اية مو اقف أكثر منها رو اية أحداث.

n ← 1

حكاية (n) مرة ما حدث مرة واحدة : توقف عند هذه الحالة الترددية مُنَظرو الرواية مليا، لأن النصوص الحديثة ترتكز عليها كثيرا لأداء عدة وظائف، فيتم اجترار نفس الحدث الذي وقع مرة واحدة داخل القصة مرات متعددة داخل الخطاب أو المنطوق السردي، وذلك بطريقتين مختلفتين هما:

- **تكرار الحدث الواحد في صيغ وتلوينات أسلوبية مختلفة.**
- **تكرار الحدث الواحد مع تنويعات في وجهة النظر.**

يتردد التجلي الثاني لهذه الحالة بشكل مذهل في «شيفرة بلال»، ولنأخذ على ذلك نموذجا واضحا ومعبرا، وهو حدث «تسمية بلال، وآذان أبيه في أذنه يوم ولادته»، الذي حدث مرة واحدة في القصة، لكنه يتكرر عدة مرات في الخطاب الروائي، وفق وجهات نظر مختلفة، منها:

- **في الفصل الثاني: حيث ورد الحدث لأول مرة من وجهة نظر الأم لاتيشا، وذلك في معرض حكايتها عن ظروف ولادة بلال، تقول:** « كان سعيد لا يزال في وضعه الطيب عندما همس لي: سنسميه (بلال).

قلت له: بلال؟ لم بلال؟ لم أكن أعرف أنك تحبه.

سألني أحب من؟

أجبته: بلال.. مغني الراب. لا أذكر أبدا أنك تحبه أو تسمع له.

قال: لا، ليس (بلال) مغني الراب.. بل (بلال) الحبشي صديق ومؤذن النبي محمد». **ص: 18.**

- **في الفصل الثاني والثلاثين: ورد حدث تسمية بلال ثلاث مرات، الأولى على لسان الأب سعيد:** «شرح لي الموظف أن بلالا كان هو المؤذن طيلة حياة الرسول، كان ينادي للصلاة، وقال لي إن كلمات بلال تلك، التي كان يرددها في النداء، يجب أن تقال للمولود في أذنه اليمنى يوم ولادته [...]

قال: زاد تصميمي على أن أسميك بلالا، كانت لاتيشا تريد أن تسميك جوشوا.. لكنني صممت، [...].

ولدت أنت في اليوم التالي، وكنت لاأزال أذكر الكلمات التي كان يقولها بلال، أخذتك في يدي وهمست بها في أذنك... ». **ص: 227.**

والثانية على لسان أمجد الحلواني، وهو يحكي ما جرى عبر الهاتف للاتيشا، يقول: «قلت لها: سعيد كان كما وصفتِه بالضبط، [...] تحدث عن السبب الذي جعله يسميه (بلال)، تحدث عن مروره بمسجد يحمل الاسم في وسط سانت لويس، وأن أحدهم شرح له من هو بلال، وعلمه كلمات النداء للصلاة كي يهمس بها في أذن المولود الجديد أول ولادته.

قاطعتني: ماذا؟ هل هذا نوع من طقوس التعميد عند المسلمين؟!

[...]

قالت لاتيشا كما لو كانت تحدث نفسها: أذكر فعلا أنه أخذه وجال به وهو يهمس له شيئا.

ثم قالت بقلق: هل الكلمات هي تعويذة أو سحر أو شيء كهذا؟

قلت بسرعة: لا لا لا أبدا، نادرا ما تجدين شيئا كهذا عند المسلمين، هي كلمات النداء للصلاة فحسب. لا شيء أكثر.» **ص: 229.**

و الثالثة على لسان بلال وهو يتحدث إلى أمجد على متن الطائرة:

«رد بلال: لقد سمعتَ ما قاله رجلي العجوز تقريبا هو لم يفعل شيئا لي كل –حياتي- غير أنه همس بهذه الكلمات في أذني، غادر بعدها بأشهر، لذا فهذه الكلمات مهمة بالنسبة لي». **ص: 230.**

- **في الفصل الخامس والثلاثين تكرر الحدث ضمن رسالة إلكترونية من أمجد إلى بلال، قال:** «مع كلمات النداء للصلاة، التي كان بلال يصيح بها، والتي همس بها والدك في أذنك يوم ولدت، لا مجال للحياد. لا مجال إلا لأن أكون واضحا. لا مجال إلا أن أبين موقفي منه، من الله». **ص: 251.**
- **في الفصل السادس والثلاثين يتكرر الحدث للمرة n ضمن رسالة بلال إلى الله، يقول:** «ربما موضوع بلال الحبشي وكلماته التي همس بها أبي في أذني، ربما هي التي تجعلني أفكر بك هذه الأيام؟ لعل الكلمات بقيت في لاوعيي بطريقة ما، مثل شيء موقوت، ثم انفجرت الآن». **ص: 259.**

يتضح من المثال أعلاه أن هذا النوع من التواتر يشكل نموذجا للحكي الترددي في «شيفرة بلال»، حيث يقع الحدث الواحد المفرد، لكن صداه يظل يتردد داخل المتن الحكائي في ملفوظات سردية لا حصر لها. ويمكننا ذلك من تحديد الحدث الرئيسي استنادا إلى معطيات شكلية ذات طبيعة بنيوية صرفة.

هذا، ويعد التواتر المذكور مجرد نموذج لحالات متعددة لتكرار الملفوظ السردي لحدث مفرد من القصة، لكن من وجهات نظر مختلفة. كما هو الحال بالنسبة للحدث المركزي المتمثل في «مرض بلال بالسرطان»، وبنسبة أقل، تتردد أيضا «تسمية المدونة»، والتي خضعت لمشاورات متكررة بين بلال وأمه.

ويتكرر هذا الأمر مع «رسائل البريد الإلكتروني»، فتصلنا مضامينها من وجهة نظر المرسل، ومن وجهة نظر المرسل إليه، وهما أمجد وبلال، وبما أنها رسائل إلكترونية، فإن لدينا قارئة دائمة، هي لاتيشا، والتي كانت تتناول هذه الرسائل وفق وجهة نظرٍ تخص الأم.

كما تتردد وفق نفس الآلية محطات من قصة بلال الحبشي، فتنظر إليها كل شخصية من زاويتها الخاصة، بلال من جهة مقاومته للسرطان، وإعادة ترتيب تصوره للعالم حوله. وأمجد من زاوية تصحيح رؤيته للحياة والكون والإله، وإعادة ترتيب أولوياته وعلاقاته داخل مجتمع مادي و أناني. ولاتيشا من وجهة نظر الأم العازبة والمربية المتابعة لعلاقات ابنها واهتماماته، وكذا من زاوية الأستاذة والناقدة الأدبية، لاكتشاف مدى تطابق التجربة الإنسانية في النضال من أجل التحرر ونبذ العبودية، مع الانبهار ببلال الحبشي باعتباره نموذجا خالدا للتحرر والتسامي عن القيود والأغلال بكافة أشكالها.

لا بد أن لتكرار الحدث الواحد من طرف رواة متعددين، وعلى ألسنة شخصيات مختلفة المواقع والخلفيات، أن يؤثر على وجهة النظر التي ينقل بها الحدث الواحد، مع اختلاف في درجة تبني هذا الحدث، ومدى الانفعال به ومعه، وكذا درجة تأثيره في المسار السردي لكل شخصية لها نوع علاقة بهذا الحدث المتواتر خطابيا. ولا بد لذلك أيضا أن يؤشر إلى أهمية حدث كهذا ومركزيته في البناء التركيبي والدلالي للمتن الروائي.

أما التجلي الأول لهذا النوع من التواتر، أي تكرار الحدث الواحد في صيغ وتلوينات أسلوبية مختلفة، فهو أقل ورودا من التجلي الثاني، إذ يمكننا حصر نماذجه داخل الخصاب الروائي في الحالات التالية:

- إلحاد أمجد، وهو أمريتم استحضاره في إطار تأملات أمجد لإبراز التحولات العميقة التي تعتمل بداخله.
- علاقة الحب من طرف واحد بين أمجد وكريستين، وذلك في إطار استرجاعات خارجية وداخلية متعددة.
- علاقة الكره المتبادل بين لاتيشا ومستر ويد، والتي تتكرر كلما استجد نقاش أو نزاع بينهما.

- الاحتقار والتنمر الذي عانى منه بلال في مدرسته قبل إصابته بالسرطان، والذي يتكرر بكامله في فصل الانتقام من جون، ثم في حكاية بلال لأمه عن أسباب الشجار العنيف.
- نضال كنتا كنتي في مواجهة العبودية، ورفضه لمحاولة طمس هويته، وتغيير اسمه، وفشله في الصمود إلى النهاية.
- الاحساس العميق والمفجع للأم العازبة بالتخلي والنكران من شريك حياتها السابق، فتردد في المواقف الصعبة بغيظ متكرر: «تبا لك يا سعيد...»

يؤدي هذا التكرار وظيفة تحيين حدث أساسي من ماضي الشخصية في اللحظة الحاضرة للبناء عليه، أو لتبرير موقف معين، أو لبيان مدى التغيير والتطور الحاصل بناء على المقارنة بين الماضي والحاضر.

n ← 1

حكاية مرة واحدة ما حدث (n) مرة: أي أن نحكي دفعة واحدة ما وقع عدة مرات، بمعنى أن يتكفل ملفوظ سردي وحيد بعدة حدوثات، فيقوم بتجميع لحظات كثيرة من زمن القصة في لحظة واحدة من زمن الخطاب. وبما أنه لا وجود لحدث يتكرر كما هو بالضبط، فإن الخطاب يذكره مجملا، وذلك بالتركيز على الحدث مجردا عن ظروف إنتاجه، وعن الاختلافات الصغيرة بين مرات تكراره، والتي تجعل منه متجددا في كل لحظة من القصة يتكرر فيها.

ويتجلى هذا النوع من علاقات التواتر في عدة نماذج، منها:

«بكى سعيد أيضا..، طلب مني أن أسامحه، وعدني أنه سيتغير، كنت قد كففت عن عد عدد المرات التي طلب فيها السماح...». **ص: 17.**

«سقط قلبي في الفراغ، كنا نتناول العشاء، وكنت للمرة الألف أفشل في أن أخبره، أفشل في أن أمسك الخيط الأول للبداية...» **ص: 175.**

«كل ليلة..، تقريبا كل ليلة.

أتصبب عرقا، أتجول في البيت كما لو كنت أبحث عن مصدر الصوت » **ص: 179.**

تتقاطع وظيفة هذا التكرار داخل القصة، والذي يتم تجميعه داخل الخطاب الروائي في منطوق سردي واحد، مع وظيفة التلخيص، فيتحرر المتن الروائي من تفاصيل لا تضيف شيئا ذا قيمة لتنامي الحدث وتتابع السرد.

يمكن أن نتحدث بصدد علاقات التواتر عن الخلاصات التالية:

- التأشير على الأحداث المركزية، والمؤثرة في المسار السردي، وذلك بالعودة المتكررة إليها، فتتواتر الملفوظات السردية المتعلقة بها، لتتردد بشكل لافت داخل الخطاب الروائي لشيفرة بلال.
- العودة إلى الحدث الواحد، وتكراره بأساليب مختلفة، كلما تطلبت المواقف المستجدة ذلك، فيتكامل التواتر والاسترجاع في تحيين الحدث الأهم في عدة لحظات من الخطاب السردي للرواية.
- هيمنة التواتر المستند على تنويعات وجهات النظر، وهو ما يتناسب مع تقنية تعدد الرواة المعتمدة في هذه الرواية.
- انعكاس تواتر الحدث المفرد مع تعدد الرواة على تنوع وجهات النظر للحدث الواحد، كما تتعدد تفاعلاته وامتداداته حسب كل راو، وذلك لتسليط الضوء على ما يحدثه الحدث المركزي من تأثيرات في شتى الاتجاهات وعلى عدة شخوص. وهو ما سنتناوله بتفصيل نظري وتطبيقي عند تناولنا للمستوى المعرفي، وخاصة في عنصر الرؤية السردية.

- الدلالة على اختلاف طرائق التفاعل وأشكال التأثر رغم وحدة التجربة الإنسانية، تبعا للخلفيات المسبقة، والمرجعيات المؤطرة، والظروف المحيطة بكل شخصية/راو.
- تلخيص وتكثيف الأحداث الدائمة المتكررة الحدوث بشكل دوري أو غيردوري في ملفوظ سردي واحد، دفعا للتكرار الممل، والخالي من الإثارة والإبداع.